سليمان وحُسام بين الأُخوَّة والحُسام: قراءة في ديوان النبهاني

رائد بن ناصر بن خلفان العامري

استوى السلطان الشاعر سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني على العرش، وهو السلطانُ ابنُ السلاطين، ولم يكن بقاؤه على العرش أمرا يسيرا، فدون العرشِ معاركُ وحروبٌ وصولات، وكان حسام بن سليمان أخو الشاعر ممن ينازع السلطان النبهاني في ملكه، فنابذه وناجزه، وإذا تتبعتَ ديوان سليمان النبهاني وتأملت شعره ولفظه جاد عليك بما ضنَّتْ به المصادر التاريخية، فوجدتَ الديوان ينبئك بأنَّ الشاعر حريص على المودة بين ذوي القربى وإن كان منهم من نابذه وقاتَلَه.

كانت مقاتلة السلطان سليمان أخاه حساما من أشدها وقعا على نفسه، إذ تتجاذب السلطان وتتنازعه قوتان هما: حُبُّ المُلك ورحم القرابة، فتجد الشاعر سليمان – في شِعره-حدِبًا شفيقًا على أخيه، على أنَّ حُبَّ المُلك هو الذي دفع حساما أيضا إلى قتال أخيه، فكلاهما آثر حُبَّ الملك على الأخوة والنسب.

يقول سليمان مخاطبا أخاه حساما[1]:

فلا تُلجِـئَنِّي للقتـالِ فـإنَّنيْ غيورٌ وسمِّي مُسرِعٌ في المقاتل

فالسلطان لا يريد قتال أخيه وحربه بيد أنه لا يفرِّط في ملكه وسلطانه[2]، فكانت العاقبة أنْ قتل السلطانُ سليمانُ أخاه حساما، فرثى القاتلُ القتيلَ، وليس في ديوان السلطان سليمان رثاء غير رثاء أخيه! فلم يبكِ الشاعر سليمان النبهاني أحدا غير أخيه حسام، فلا مصاب فوق مصاب أخيه، وليس في الموتى من تُسكب له دموع سليمان النبهاني، وهو الذي يقول في رثائه[3]:

---

[1] ديوان النبهاني، ص٢١٤.
[2] انظر تعليق المحقق في الحاشية.
[3] ديوان النبهاني ص١٤٩.

أحسامُ أوجَعَني رَداكَ ولم أكُنْ قِدمًا ليوجعَنِيْ مُصابٌ موجعُ

وهو الذي يقول أيضا[٤]:

إنْ أُمْسِ مأثُومًا بقتْلِكَ إنَّنِيْ بكَ يا ابْنَ سيِّدِ يعربٍ لَمُفجَّعُ

تأملْ قوله مأثوما ولم يقل آثما! مع أنَّه هو الذي قتله، استعمل (مفعولا) بمعنى (فاعل)، عدل عن اسم الفاعل إلى اسم المفعول، فكأنَّ وقوع الإثم عليه أمر ليس دفعه بيده![٥] وقد بيَّن السلطان أثر موت حسام فيه، ووكَّده بتوكيدات في قوله: إنني بك يا ابن سيد يعرب لمفجّع.

أولها: (إنَّ) المشددة النون.

وثانيها: ثبوت النون في (إنَّني) فهي أوكد من (إنّي).

وثالثها: دخول اللام المزحلقة على خبر (إنَّ).

ورابعها: أنه قال مُفَجَّع من فجَّعَ بتضعيف عين الفعل مبالغة، ولم يقل مَفجُوع.

وخامسها: تقديم شبه الجملة (بك) والحصر الذي أفاده التقديم، فالحزن ليس لشيء غير وفاة أخيه حسام.

فالعرش هو الذي جعلهما ندَّين يتقاتلان، وإلا فإن السلطان سليمان يرفع قدر أخيه وينوه باسمه. انظر إلى قوله مناديا أخاه حساما بكنيته[٦]:

أبا ناصرٍ لا تجهلِ الحربَ إنَّها لتقطيعِ أسبابِ الإخا والمناسبِ

---

[٤] ديوان النهاني، ص١٥٠.

[٥] قال كراع النمل: "ربما جعلت العرب مفعولا بمعنى فاعل كقولهم رجل مَاثُومٌ أي آثم" المنتخب من كلام العرب، ص٦٣٩.

[٦] ص٣٨-٣٩.

أبا ناصر إنَّ الحُروبَ لصعبةٌ   على راكبٍ لم يلق قدماً لراكب

يخاطب الشاعر أخاه أبا ناصر حسامًا، ويناديه وقد حذف أداة النداء؛ ليبين لأخيه أنه قريب منه، فحذْفُ أداة النداء له دلالة، وهي أن المنادى في أقرب منازل القرب من المنادي، فلا حاجة إلى ذكر أداة نداء له لشدة قربه(٧)، وقد ناداه بالكنية لا بالاسم تحببا وإكراما، فالتكنية إكرام: يقول الحماسي:

أَكْنِيهِ حين أُناديْهِ لأُكْرِمَـه   ولا أُلَقِّبُهُ والسَّـوْءَةَ اللقبا[٨]

فالنداء بالكنية إكرام للمنادى، وتقدير له وتفخيم، وكانت "العرب تخاطب السادة في الأندية، والزعماء تحت الألوية، فيقول: أبا فلان، تريد بذلك النص والتنبيه والهزّ والتفخيم"[٩]، والسلطان سليمان يرى أخاه حساما أهلا للتبجيل والتفخيم، فناداه بالكنية[١٠]، فللكنية شأنها في الفخر والتعظيم. قال الأعرج المعني مفتخرا وقد كنى نفسه:

أنا أبو برْزَةَ إذ جدَّ الوَهَلْ   خُلِقْتُ غيرَ زمَّل ولا وَكَل

فالشاعر "يريد أنا الذي لشهرته تُغنى كنيتُه عن صفاته وذكر أحواله"[١١]، والسلطان سليمان النبهاني كنى نفسه في موضع التفخيم حين قال[١٢]:

فغدا يقولُ شريفُهمْ ووضِيعُهمْ   قَـولا يُهَـيِّجُ كُـلَّ ثـاوٍ كامنِ

للــه درُّ أبي علـيٍّ إنـَّهُ   أحيا الندى وأمات كلَّ مُشاحِنِ

---

(٧) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ٢٤٢/١. معاني النحو، ٢٧٨/٤.

٨ ولهذا البيت رواية أخرى بالرفع (اللقبُ) وقبله شاهد نحوي:

كَذَاكَ أُدِّبْتُ حتى صَارَ مِنْ خُلُقِي ... أَني رَأَيْتُ مَلَاكُ الشيمَةِ الأَدَبُ

ينظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك، ٦٩٧/٢.

٩ المجموع اللفيف، ص٢٧٧

١٠ وتكنية أبي لهب ليست من هذا الباب، بل لها وجوه يضيق سردها. ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري، ٨١٤/٤.

١١ المرزوقي، أبو علي، شرح ديوان الحماسة، ٢١٠/١.

١٢ الديوان، ص٣١٧.

فـ(أبو عليّ) كنية السلطان سليمان، فذَكَر الكنية في موضع التفخيم والافتخار بالجود.

وفي مناداة السلطان أخاه حسامًا بالكنية لينٌ وتلطف لأنَّ في الكنية تلطفا وتحببا حتى قيل في تفسير قوله تعالى: {فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا} [طه:٤٤] :أي كنياه[١٣]. ألَانَ السلطان سليمان لأخيه حسام القول مذكرًا إياه بوشائج القربى راجيًا منه الكفَّ عن الحرب لأنها كما يقول سليمان لأخيه، تقطع أسباب المودة وأواصر القرابة.

وانظر إلى موقع النون الساكنة في قول الشاعر سليمان يخاطب أخاه[١٤]:

فقل لحسامٍ راجع السلم تسلمنْ ودعْ عنكَ تذكارَ الوغى والطوائل

وقوله في موضع آخر[١٥]:

فإنْ كنتَ قد جرَّبْتَ حربيْ فسالمَنْ وإنْ لم تكنْ جرَّبْتَ حربي فَحاربِ

في قوله (فسالمَنْ) و (تسلمَنْ) في قصيدتين متغايرتين، أضاف الشاعر نون التوكيد الخفيفة الساكنة ليسلك المخاطبُ (أخوه حسام) سبيل السلم والسكون بدل الطيش والاضطراب؛ لأن "صوت النون إذا لفظ مخففًا مرققًا أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة"[١٦]، وهو ما يناسب في هذا البيت طلب السكون والوفاق بدل الحرب والشقاق.

وقد كان السلطان سليمان النبهاني يتجنب قتل أخيه ويتقيه، ولكنه اضطر إلى ذلك، فانظر إليه يقول في رثائه[١٧]:

أحفظتني لفظا أتيح منية خطرتْ ولم يكُ ثَمّ عنها مدفعُ

---

[١٣] معاني القرآن للفراء، ج٢، ص١٨٠، تفسير الطبري، ج١٨، ص٣١٣.

[١٤] الديوان، ص٢١٣.

[١٥] الديوان، ص٢٩.

[١٦] خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص١٦٠.

[١٧] ديوان النبهاني، ص١٥١.

وبعد أن قتل أخاه يمم نحو أعدائه منذرا متوعدا فقال[١٨]:

هل فيكمُ كأخي لديَّ جلالة وهو الذي أضحى بسيفي مصرعُ[١٩]

ففي البيت بيان أن لحسام جلالة وقدرا عند أخيه سليمان.

فما قتْلُ السلطان أخاه إلا اضطرار لا يُدفع، وقد أكد ذلك في غير موضع. يقول[٢٠]:

لمَّا أتـاحَ لك الإلـهُ مَنِيَّـةً فإذا المَنِيَّـةُ أقبلـتْ لا تُدفعُ

ثم تأملْ هذا البيت، وانظر في تراكيبه، فإنك إنْ فعلتَ رأيتَ بكاء الشاعر وحزنَه، ورأيت دموعه وشجنه، ورأيت عجزه عن ذكر وقائع قتالهما، فانظر إلى الحرف (لمَّا) في البيت، هل وجدت له جوابا؟ إن لـ(لمَّا) أوجهًا، منها "أن تختص بالماضي فتقتضي جملتين، وُجِدَتْ ثانيتهما عند وجود أولاهما، نحو: لما جاءني أكرمته"[٢١]، ومِن البيِّن أن (لمَّا) في بيت النبهاني كذلك تقتضي جملتين، ولكن ثانيتهما حُذفت، - وحذف جواب لما موجود في القرآن والشعر- فكأن التقدير: لما أتاح لك الإله منية كانت منيتك بيدي، أو قتلتك بسيفي، أو نحو ذلك من الجمل التي يشق على الشاعر النطق بها، حذف الشاعر الجملة حتى لا ينكأ جرحه بذكر ما تصرَّمَ وانقضى من أحداث موجعة بين الأخوين.

وأبى سليمان أن يصف في شعره كيف كان موت أخيه بيده، مع أن ديوانه مليء بوصف مصارع أعدائه وقتلهم والتنكيل بهم، فموت أخيه آلَمَه، ووصْفُ موتِه يزيده ألما ووجعا خلافا لأعدائه الذين يتلذذ بذكر مصارعهم ووصف مقتلهم نحو قوله[٢٢]:

---

[١٨] ديوان النبهاني، ص١٥٢.

[١٩] القافية مضمومة فلم ينصب الشاعر (مصرع) مع أنها خبر أضحى. ينظر تعليق المحقق.

[٢٠] ص١٤٠.

[٢١] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٩م، ٣٦٩/١.

[٢٢] ديوان النبهاني، ص٢٤٤.

وأروعَ ذي سطْــوة ماجــدٍ　　مَهِيــب الحفـيظة مُستلـئِم

أطرتُ نعـــامةَ يافُــوخِــهِ　　بأبيــضَ ذيْ رونـق مِخـذَمِ

فغـادرتُـهُ جزرًا للسِّــباعِ　　وزادًا لأنْسُـــرِها الحُـــوَّمِ

بل قد يصحبُ وصفَ مصرعِ الأعداء إقذاعٌ نحو قوله:

حشـــوتُ حشـــاه بمخلـــوجة　　تفــرَّعُ عن نافـــذٍ لهـذمِ

فخرَّ صريعا لحـــرِّ الجبـيـنِ　　يُفَحّـصُ عن فـرْثِـه والــدَمِ

ومن الإقذاع قوله[٢٣]:

نُشْتُه بالقرن عرضا فهوى　　وعلى ثوبيه سَلحٌ وعلقْ

فهكذا كان يذكر مصرع أعدائه، وأما قتْلُ حسام فليس من هذا في شيء، بل هو الذي يرثيه!

وانظر إلى سليمان كيف يخاطب حساما في رثائه[٢٤]:

قد كان سيفُك قبل يومِك قاطِعا　　فغـدا بيـومك نابيا لا يقطع

لم يقل الشاعر بعد أن قتل أخاه: أنا أشجع منك وأقوى كما يقول لأعدائه، وشقَّ عليه أن يقول لأخيه بعد موته: قد غلبتك، بل جعل نُبُوَّ سيف حسام سببا لهزيمته ومقتله، مع أن سليمان كان قبل مقتل أخيه يُمجِّد سيف أخيه نحو قوله[٢٥]:

إذ جـاء مُنتضِيا حُساما كاسْمِهِ　　عضبا ملامِــسُ حــدِّه لمْ يامنِ

[٢٣] ديوان النبهاني، ص١٧٤.
[٢٤] ديوان النبهاني، ص١٥١.
[٢٥] ديوان النبهاني، ص٣١٥.

وإنما لكل سيف نبوة، وكانت نبوة سيف حسام يوم مقتله!

ومما قاله سليمان في رثاء أخيه بعد أن قتله[٢٦]:

قطعتْ يديْ عمدًا يديْ وتوهمي من قَبْـلُ أنَّ يدًا يدًا لا تقطـعُ

فقتْلُهُ حساما كقطعه يده.

وكان سليمان قبل موت أخيه يلين القول له، ويُذكِّره بالرحم الماسة التي بينهما، والنسب الذي يربطهما، وأن الحروب تقطع أواصر هذه القربى، فقال[٢٧]:

ألم تَنْهَكَ الحربُ التي سلفتْ لنا بحبلِ الحديدِ يا كريم المناسب

لقد جربت حربي، ورأيت بأسي وشجاعتي في الحرب التي سلفت، وأنت كريم النسب شريفُهُ، فدع مقاتلتي، على أن سليمان -وإن وصف حساما بالشجاعة والإقدام في حروبهما – لا يرينا أن الحرب كانت بينهما سجالا، بل أراناها -كما في هذا البيت- أنَّه هو المنتصر، وأنَّ انتصاره على أخيه مما ينبغي أن يدفع أخاه إلى السلم وكفِّ القتال، ولذلك يُحذِّره بقوله[٢٨]:

فعليك نفسَكَ ألزمنْها رُشدَها وأقمْ مَقامَ العاقلِ المُتَطامِنِ

ويقول يخاطبه[٢٩]:

فقفْ هداك الله من همـام لقد أطبتَ أنفسَ الخصام

ما هكـذا يا أفخـر الكـرام جـزاء صنْـوٍ حافظِ الذِّمامِ

بل كان السلطان سليمان يرجو أن يكون أخوه حسام سندا له وظهيرا، فهو يقول[٣٠]:

---

[٢٦] الديوان، ص١٥٠.

[٢٧] ديوان النهاني، ص٢٨.

[٢٨] ديوان النهاني، ٣١٨.

[٢٩] ديوان النهاني، ص٢٤٨.

[٣٠] ديوان النهاني، ٢٤٨

لا زلتَ لي ظهرا مدى الأيَّام ولا دهـاك الدهــرُ بالحِمــام

وتأمل قوله: ولا دهاك الدهر بالحمام! لم يضف الشاعر الحمام لا إلى نفسه ولا إلى أخيه، فلا دهاك الدهر بحمامي ولا بحمامك، فالأخ سند أخيه، وموت الأخ سقوط السند.

والسلطان سليمان كان يتقي قتله، ويقول إنه قادر على قتله، بل أقسم على ذلك إذ قال[٣١]:

إنـي لأقـســمُ بالإلـه ألـيَّـة واللهِ يكسـوْ الخِـزيَ وجـهَ الخائنِ

لو كان غيرَ أخيْ المحاولُ عثرتي لسقيـتُه كـأسَ الحِمـامِ الآسِـنِ

إذْ كنـتُ أعلمُ ما مُعادٍ مُقـلـعٌ عمَّـا يُحـاول كالمُعاديْ العـادِنِ

فلو كان الذي قارَعَهُ وصاوَلَهُ غير أخيه لقتله، ولكنه لم يفعل مع قدرته، لأن أخاه حساما معادٍ مقلعٌ، يفيء إلى الرشد وينزع إلى السلم ويرجع عن الغيّ، إنها الأخوة، هكذا كان السلطان سليمان النبهاني يأمُل ويطمع، وهو يرى أن عداوة حسام إلى أجل قريب، وليست كعداوة المعادي العادن، والعادن المقيم، تقول: "عَدَن بالمكان يعدن به عَدْنًا، إذا أقَام به؛ ومنه {جَنَّاتِ عَدْنٍ} أي جنَّات إقامة"[٣٢]، فكأن سليمان يتمثل قول الحماسي:

وإنْ سُؤْتَني يَوْمًا صَفَحْتُ إلى غد لِيَعْقُبَ يوم مِنْكَ آخَرُ مُقبِلُ

ولكنَّ سليمان كَدَمَ في غير مكْدَم، ونفَخَ في غير ضرم لأن صلته بأخيه أنبأته -وهي كاذبة- أن العداوة زائلة، وأن حساما عما قليل يصبح من النادمين.

فإذا تبيَّنَ لك أنَّ السلطان سليمان تجاذبته القرابة والرياسة، وأنَّه كان حفيًّا بأخيه لكنَّ حب الملك غلب عنده، فاعلم أن هذا الأمر مما عُهِد عند العرب حتى قالت في أمثالها: الملك عقيم. قال أبو عبيد (٢٢٤هـ): "يريدون أنَّ الملك لو نازعه ولده الملك لقطع رحمه حتى يهلكه، فكأنه عقيم لم يولد له، وإنما ذلك من الانفراد بالملك، وأن

---

[٣١] ديوان النبهاني، ص٣١٧-٣١٨.

[٣٢] إصلاح المنطق، ص٤٩.

ليس في الملك شريك، فكأنه لذلك عقيم"[٣٣]، وقال ثعلب (٢٩١هـ): "ويقال: الملك عقيم أن يقتل أباه وأخاه وعمَّه"[٣٤].

[٣٣] أبو عبيد، القاسم بن سلام، الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش، ص١٤٨.

[٣٤] مجالس ثعلب، القسم الثاني، ص٥٩٦.